الفصحى والعامية

لنْ يقع بتٌّ في قضية الفصحى والعامية الى زمن بعيد وستبقى ابواب البحث فيها مفتحة المصراعين الى ما شاء الله ، ولذلك فاننا سنعرض على القراء بعض الآراء في المسألة حتى يكونوا على بينة مما آلت اليه الآن وإنا لنرجو من الادباء من بينهم أن يواصلونا بما لديهم من الآراء فيها بشرط ان تكون طريفة وبشرط الا تدور مقالاتهم حول تلك الفكرة « المعلومة من الدين بالضرورة » من كون اللغة العربية لغة عظيمة واسعة الجوانب فيها ما يكفيها من الالفاظ والمعاني فلا تحتاج الى شيء وانها لغة الدين والوطن وأنها وأنها الخ لان الضرب على مثل هذا الوتر انما ينبؤنا بأن صاحبه لا يقدر على ابتكار ادنى شيء جديد وأن ما يدعيه انما هو من باب « السماء فوقنا » - كما يقال في القرويين - وأنه يجهل تمام الجهل ان اللغة العربية قبل الاسلام غيرها بعده وأنها في أيام البعثة النبوية غيرها في أيام الدولة العباسية حين فتحت أبوابها لمترجمات الفرس واليونان وأنها قبل توسيع نطاق الفقه الاسلامي وعلم الكلام وما الى ذلك من الجدالات والمناقشات الكلامية والمنطقية غيرها بعده وأنه يجهل تمام الجهل أن عربية طرفة وقس بن ساعدة ما كانت لتكفي للمفاهمة الاسلامية العالمية لو بقيت كما كانت في الجاهلية بل أنها بفضل القرآن وعلوم الفقه والكلام والتصوف وما تبع ذلك من دخول بعض الالفاظ الفارسية واليونانية والهندية والعامية (بغداد والشام على الاخصّ) أصبحت لغة عالمية.

***

تقدّم للقراء ان اطلعوا على رأي الدكتور طه حسين والاستاذ العقاد في جريدة « السعادة » نقلا عن بعض الجرائد المصرية وانا سنعرض عليهم الآن رأيين للاستاذ تيمور والاستاذ طاهر الطناحي ، فقد عرض الاول آراءه في المسألة في بحث نفيس قدّمه لمؤتمر المستشرقين الذي عقد بليدن (هولاندة) سنة ١٩٣١ عن النزاع بين العامية والفصحى في الادب العصري الحديث وكانما كان البحث جواباً عن المسألة الاتية : أيكتب النصر للغة الفصحى لغة الكتابة ؟ أم تفوز اللغة العامية لغة الكلام ؟ وهو يجيب عن ذلك : « ان لغة المستقبل ستكون هي اللغة العامية الحديثة التي ستصير لغة المكاتبات الرسمية والحديث الشفويّ بينما تظلّ اللغة الفصحى كما كانت لغة الكتابة في سائر البلاد العربية[1] » ومما يدل على ما يدعيه هو أن المكاتبات الرسمية في كثير من البلاد العربية قلما تكون من الفصحى في شيء بل هي أقرب الى العامية منها الى الفصحى لأن الدوائر الرسمية تكتب لجمهور الامة الذي لا يفهم ما تفهه الاقلية والخاصة من الادب واللغة ، فهي في اضطرار الى اتباع القول المأثور « خاطبوا الناس على قدر ما يفهمون » ولعل الاستاذ لا يتنبه الى كون ما قدمه كحلّ للمسألة لا يمكن أن يكون حلاً لها وانما ذلك تقريرٌ منه لما هو واقع مشاهدٌ في سائر البلاد العربية حيث انه يوجد بها لغتان لغة عامية يتكلم بها ويكتب بها من لا مساس لهم بالعلم كبعض أهل البوادي ولغة فصحى يكتب بها في الشؤون

---

(١) وقد كان الاستاذ تيمور من دعاة العامية في جملة من كان من دعاتها من بين كتاب مصر ولكن يظهر أنه رجع عن ذلك حيث أنه صحح بعض قصصه وكساها حلة فصحى بعد أن كانت مكتوبة بالعامية وطبعها طبعة ثانية سنة ١٩٢٧ بعد ما أزال ما كان فيها من التحريف.

ع. ك. ف.

الادبية والعامية ، ونحن نريد الخروج من هذه الحالة فتكون لنا لغة واحدة بها نكتب وبها نتكلم والظاهر أن ذلك لا يمكن الا بالوسائل الاتية :

أولاً — تعميم تعليم اللغة العربية في سائر الطبقات (وهي الغاية القصوى) .

ثانياً — الكتابة باللغة العامية وهو ما يأباه الناس وفيه من الصعوبات العامية ما يجعله بعيد المنال .

ثالثاً — الاخذ بين الطرفين وهو تعليم اللغة الفصحى مع اعتبار بعض التعابير والالفاظ العامية وادخالها في الفصحى خصوصاً الالفاظ التي تقادم عليها العهد والمصطلحات الصناعية كما وقع ذلك لبعض الامثال العامية التي يستعملها بعض الكتاب والادباء ، ومن هذا القبيل تلك المحاولة التي قام بها الطلقاني في القرن الرابع للهجري حيث أنه جمع « الامثال العامية » ببغداد الذي طبعه المستشرق الصوفي مسيو ماسنيون سنة ١٩١٥ بالقاهرة وقد تبعه في ذلك نعوم شقير فجمع عدداً وافراً من أمثال العامة في مصر والسودان والشام وطبعت حوالي سنة ١٨٩٠ .

وأظن أن هذا العمل ستقوم به الاجيال المقبلة من غير اضطرار الى مجتمعات لغوية بل تكتفي هذه بتدوين ما سيقع تحت تأثير مؤثرات وعوامل شتى كما يقع ذلك عند كثير من الامم الغربية فترى مثلا أن لفظاً كانت تستعمله العامة في القرن المتقدّم فبقي مستعملاً حتى سمى مقامه الى استعماله في الكتابة فتعمد اليه اللغة وتتبناه ويدخله اللغويون في معاجمهم وكثير ما يقع ذلك في اللغة الافرنسية وكل يوم نرى الاكديمية الافرنسية تفتح بابها للفظٍ كان بالامس مبتذلاً فتحدّد له معنى من معانيه وتدخله في قاموسها . وسيقع مثل ذلك لكثير من الفاظ اللغة العامية في العربية وأحسن شاهد على ذلك أننا نجد بعض الكتب المؤلفة بالمغرب — « ساوة الانفاس » للكتاني مثلا — مشتملة على اساليب كتابية وتعابير هي أقرب الى العامية منها الى الفصحى وان كان وقوع ذلك ليس باختياري من الكاتب وإنما هو مرغم عليه بحكم البيئة التي يعيش فيها لان اللغة المتكلم بها في حواضر المغرب وبواديه ليست الفصحى فاذا كتب عالم فانه كثيراً ما يتأثر بالالفاظ والاساليب التي يستعملها بين أهليه وذويه .

ويظهر نفس ذلك في درس بعض العلماء حين يلقون دروسهم على الطلبة فانهم كثيراً ما يستعملون اساليب وتعابير ليست من الكلام الفصيح في شيء وذلك زيادة على تأثرهم بالعامية فانه يرجع الى كون الكثير منهم لم يتثقفوا بالادب العربي ولم يقرؤوا القرآن والحديث بقصد تعلم ما فيهما من فنون البلاغة وضروب البيان واشتغالهم بلوك الالفاظ الفقهية والقواعد النحوية يبعدهم بعض البعد عن الادب والانشاء حتى أنك لتجد منهم من لا قدرة له على كتابة الرسائل العادية فضلا عن ذلك من أنواع الكتابة والترسل ، وكل ما يعرفون من الادب هو « المقامات » ودرسها عندهم من الكماليات وكانت لا تدرس في داخل الجوامع لما فيها من أنواع المجون كالشعر نفسه وتدرس في صحن المسجد تبعاً لقول من لا يعتبر الصحن من جملة المسجد .[1]

فالعالم اذا لم يكن ذا معرفة بأدب العرب شعره ونثره فان العامية تتغلب على طبعه ويظهر ذلك اذ القى درساً أو كتب كتاباً أو حدّث حديثاً ، ولم يقل في نظم بعض

(١) وهنا يلذّ لي ان ارشد من لا يرى للادب قيمته التي ينبغي أن يعطاها الى ما يحكى عن الشيخ احمد بن ناصر الدرعي من كون بعض العلماء دخل عليه في وقت صلاة الجمعة فوجده يقرئ أولاده بعض قصائد العرب (المعلقات ؟) فاستغرب منه ذلك نظراً للوقت المذكور فأفهمه الشيخ رحمه الله بأن ذلك نفسه لا ينافي العبادة حيث أن فهم كتاب الله متوقف على دراسة العرب ! والغاية تبرّر الوسائل ، أليس كذلك ؟ ع. ك. ف.

البلغاء « شعر عالم » لغير ذلك لان سبب ركاكة شعر بعضهم هو جهلهم باللغة العربية رغماً عن معرفتهم بالنحو والعروض .

***

وأما الاستاذ الطناحي فانه يبحث في « هل في اللغة العامية أدب يستحق البحث ؟ » وبعد ما أورد في مقاله[1] نتفاً من قصائد عامية تساءل : هل مثل هذا النوع من اللغة العامية يقال له أدب ؟ ولأجل أن نتحدّث عن ذلك لابدّ ان نتكلم عن معنى الادب ، فالمعروف عند القدماء ان الادب هو اجادة التعبير نظما ونثراً على اساليب العرب ، والمعروف عند ادباء اليوم أن الادب هو التعبير بكلام جميل عن خاطر يجول بالنفس أو عاطفة يفيض بها القلب أو شعور بصورة من صور الجمال — فيجيب بانه على كل من الرأيين لا يمكن أن تعتبر الازجال والاغاني والقصص أدباً « وأن اللغة العامية ليس فيها نوع من الادب » ، لو كان التحديد الذي أعطاه الاستاذ موافقاً للحقائق العلمية لكان رأيه صواباً إذ مثل تلك التحديدات انما هي تحديدات ادبية فنية لا يعترف بها العلم اذا العلم يرى في الادب ظاهرة من ظواهر حياة الامم كالموسيقي والرسم وغيرهما تدرس كما يدرس غيرها من الظواهر الاجتماعية ولذلك فان التعريف العلمي لا يمكن أن يكون الا على الشكل الآتي : الادب مجموع ما انتجه كتاب أمة وشعراؤها من شعر ونثر سواءً كان ذلك فصيحاً أو عامياً فاذا اعتبرنا الادب هذا الاعتبار فالشعر العامي يكون بلا شك أدبا لان اعتبار الوزن والقافية والمحسنات اللفظية انما هي اعتبارات نسبية لا يعتبرها العالم في حكمه على الانتاج الادبي وانما تعرض للناقد في حكمه على نوع الادب .

---

[1] هلال سنة ١٩٣٣ صحيفة ١٣٢٥ .

وقد ختم الاستاذ الطناحي بحثه النفيس بالدعوة الى التوفيق بين اللغتين الفصحى والعامية كما فعل بعض الادباء المتقدمون كالبهاء زهير وغيره ، (وعند ما نعود للبحث في هذا الموضوع نأتي للقراء بامثلة من الادب المغربي في هذا الشأن) .

***

وأنه ليسرُّنا تمام السرور كون المقالات المنشورة في مسألة الفصحى والعامية حرّكت همة بعض الادباء المغاربة فبعثوا لنا مقالات نخص منها بالذكر مقال الاديب السيد عبد الله الجراري الرباطي تحت عنوان : « مفعول العامية في الوسط » لا يمكن نشره الآن لضيق المقام ، ومضمنه : أن السلف الصالح كانوا يخاطبون الناس على قدر أفهامهم يشهد لذلك ما ورد في الصحيح عن علي موقوفاً : « حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ » وما ورد في مقدمة مسلم عن ابن سعد : « ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة » ، وان كنا لا نرى في هذا حجة لا تدحض فانه مما يستأنس به ، ثم ان الكاتب أخذ يبين كون العامي لا يفهم كثيراً مما يقول الخطباء والمحاضرون بل كثيراً ما يفهم بعكس ما يقوله الخطيب أو المحاضر ، وقد تتبع ما كنا قلناه في العامية في مقالنا عن رواية « الاوصياء » وبين أننا لم نرد أدنى تنقيص من قدر اللغة العربيه والواقع هو أن الذي فهم من كلامنا ذلك انما اساء الفهم واساءة الفهم من الذنوب المغفورة لانه أمرٌ اضطراري لا اختيار لصاحبه فيه حيث أن فكره خلق معوجاً ، واستشهد بكلام العلامة ابن خلدون بكونه اعتبر الشعر العامي وأثنى عليه في مقدمته وأعطاه حقه من الاستفاضة في الكلام وبيان ما احتوى عليه من بلاغة .

***

كما أننا نذكر من بين تلك المقالات مقالا لاحد تلامذة القرويين وهو السيد الطيب بن الطالب الفاسي عنوانه : « كتاب مفتوح الى رئيس طلبة الشمال الافريقي » وانما وجه الخطاب له لما يعرف من كون حضرة الرئيس ممن يدعون الى الاعتناء بالادب العامي وله في ذلك أبحاث قيمة ومواقف مشهورة سيطلع عليها القراء بعد حين ، ويلخص المقال المذكور في كون الاعتناء باللغة العامية لا يجدي نفعاً في الحالة التي عليها المغرب الآن من جهل الجمهور للغه العربية الفصحى أكثر من غيرها لانه بهـا يتمكن المغربي من الثقافه الاسلاميه وحفظ الدين فان كان لابدّ من الاعتناء بالعامية فيكون ذلك في سبيل استعمالها في دعوة الجمهور الى النهوض مما هو فيه من خمود وجمود ، وهذا رأي جدير بالاعتبار ، والسلام .

عبد الكبير الفاسي

وحـدة اللـغـة

للشيخ محمد رشيد رضا [1]

لا يمكن أن يتم الاتحاد والاخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة الا بوحدة اللغة ، وما زال الحكماء الباحثون في مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة يتعاونون بها على التعارف والتآلف ومناهج التعليم والآداب والاشتراك في العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية ، وهذه الامنية قد حققها الاسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة لجميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته ، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم الى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمهما والتعبد بهما والاتحاد بأخوتهم فيهما ، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولذلك كرّر في القرآن بيان كونه كتاباً عربياً وحكماً عربياً وكرر الامر بتدبره والتفقه فيه والاتعاظ والتأدب به ، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذي يخضعون لحكمه ، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هي عادة البشر في ذلك ، وكذلك كان الامر في الفتوحات الاسلامية العربية كلها.

وقد بينت من قبل وجوب تعلم اللغة العربية في دين الاسلام وكونه مجمعاً عليه بين المسلمين كما قرره الامام الشافعي (رض) في رسالته وقد جرى عليه العمل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ثم خلفاء الامويين والعباسيين الى أن كثر الاعاجم وقل العلم وغلب الجهل فصاروا يكتفون من لغة لدين بما فرضه في العبادات من القرآن والاذكار .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذي ينافي وحدتهم وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد كما شبههم بقوله: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه الامام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) وكان يخص بمقته وإنكاره التفرق في الجنس النسبي أو اللغة ، أما الاوّل فمشهور وأما الثاني فيجمعه مع الاوّل الشاهد الآتي :

روى الحافظ ابن عساكر بسنده الى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟ (يعني هذا المنافق بالرجل النبي صلى الله عليه وسلم وأن الاوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لانهم من قومه ، فما الذي يدعو الفارسي والرومي

[1] المنار